العلاقة بين الحب والطاعة

الشيخ طلال الجمري

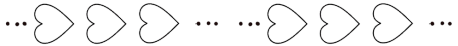

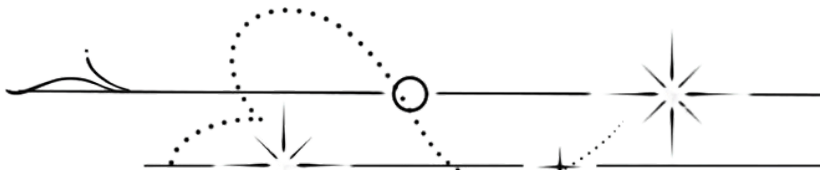

سُورَةُ الفَاتِحَةِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ١
ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢
ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤
إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥ ٱهۡدِنَا
ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ
عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ
وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧

إهداء

إلى سيدي أمير المؤمنين عليه السلام، ويعسوب الدين، وقائد الغرّ المحجّلين، إلى عليّ بن أبي طالب (عليه السلام)، حيث ينتهي البيان، ويبتدئ سرّ الله في الإنسان...

إليك يا عليّ، لا بوصفك اسمًا في سجلّ التاريخ، ولا صفحةً تُقرأ في كتب السيرة، بل بوصفك الحقيقة التي بها يُعرف الحقّ، والمعيار الذي عليه تُوزن القلوب، والنور الذي به اهتدت الأرواح في مسيرها إلى الله.

إليك، يا من لم يكن حبّه خيارًا عاطفيًا، بل قدرًا إلهيًا، كُتب في لوح الفطرة قبل أن تُخلق المشاعر، وغُرس في عمق الوجدان قبل أن تُدرك العقول معاني الولاء...
يا من صار حبّه حدًّا فاصلاً بين نجاةٍ وهلاك، وبين إيمانٍ ونفاق، حتى قيل فيك ما قيل، وشهدت لك السماء قبل الأرض، وأقرّت لك القلوب قبل الألسن.

يا عليّ...
أيّ حرفٍ يستطيع أن يقترب من مقامك دون أن ينكسر؟
وأيّ بيانٍ يجرؤ أن يصفك دون أن يعجز؟
وأنت الذي إذا ذُكرتَ، انحنى البيان هيبةً، وإذا حضرتَ، سكتت الكلمات خشوعًا، لأنّها تعلم أنّها تقف أمام بحرٍ لا تُدرك له شواطئ، ونورٍ لا يُحدّ بحدود.

يا سرّ الحبّ حين يكون لله، ويا تجلّي العشق حين يتحرّر من أنانيّته ليصير عبوديةً خالصة، يا من صار حبّك سُلّمًا إلى الله، لا يُرتقى إلا به، ولا يُعرف الطريق إلا من خلاله...

فما الحبّ في مدرستك ميلَ قلبٍ فحسب، بل هو انقياد روح، وتسليم عقل، وذوبان ذات في سبيل الحقّ الذي تمثّله.

يا أمير المؤمنين، لقد تعلّمت القلوب من سيرتك أنّ النجاة ليست ادّعاءً، بل موقف، وليست شعارًا، بل التزام...

وتعلّمت أنّ حبّك ليس كلمةً تُقال، بل طريقٌ يُسلك، وجهادٌ يُعاش، وثباتٌ على الحقّ حين تتزلزل الأقدام، وحين يُصبح الوفاء امتحانًا لا يثبت فيه إلا من ارتبط بك ارتباط المصير لا ارتباط العاطفة العابرة.

يا عليّ...

أنت السفينة التي لا تغرق، وإن تلاطمت أمواج الفتن، وأنت الباب الذي لا يُغلق، وإن ضاقت السبل، وأنت الحبل الذي من تمسّك به نجا، ومن أعرض عنه تاه في متاهات الضياع...

فكيف لا يكون حبّك نجاة، وأنت باب مدينة علم رسول الله، ووارث سره، وحامل لوائه، وامتداد نوره في الأرض؟

يا قبلة العاشقين، يا من إذا ضلّت القلوب وجدت فيك الدليل، وإذا اشتدّ الظلام رأت فيك الفجر، يا من صار ذكرك طمأنينة، وولايتك سكينة، والانتساب إليك شرفًا لا يعلوه شرف...

هذا الكتاب، يا مولاي، ليس إلا محاولةً خجولة للوقوف على عتبة معنى الحبّ العظيم الذي تجلى فيك وفي أبنائك المعصومين عليهم السلام، ليس إلا قطراتٍ صغيرة من بحرٍ لا يُحدّ، وليس إلا نداء قلبٍ يبحث عن النجاة في زمنٍ كثرت فيه السبل وتفرّقت فيه الطرق...
فلم يجد أصدق من حبّك طريقًا، ولا أوضح من ولايتك منهجًا، ولا أأمن من بابك ملاذًا.

إنّه كتابٌ كُتب بروحٍ تعلّمت أنّك المعيار، وأنّ الحبّ الذي لا يمرّ عبرك يبقى ناقصًا،
وأنّ النجاة التي لا تُكتب في سجلّ ولايتك تبقى موهومة، مهما تزيّنت بالشعارات.

إليك يا عليّ، يا ميزان الأعمال، ويا قسيم الجنّة والنار، يا من كان حبّه أمانًا في الدنيا، وذخرًا في الآخرة، أرفع هذا الإهداء، وهو يعلم أنّه لا يفي، ولا يبلغ، ولا يقترب...
لكنّه يرجو أن يُقبل، لا بحروفه، بل بنيّته، ولا ببيانه، بل بولائه.

فاجعل ـ يا مولاي ـ هذا الحرف في ظلّ رحمتك، واكتب لصاحبه نصيبًا من ذلك الحبّ الذي لا يخذل أهله، واجعل خاتمته على ولايتك، وحشره في زمرتك، يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون، إلا من أتى الله بقلبٍ سليم، وقلبه معلّق بحبّ عليّ.

إليك يا أمير المؤمنين هذا الإهداء، وما فيه، وما عجز عنه، وكلّه أملٌ أن يكون في سجلّ المحبّين، وفي ديوان من نجا بحبّك، وفاز بولائك، وكان معك حيث تكون.

آبو يقين نور الزهراء

مقدمة كتاب

ليس الحب في منطق أهل البيت (عليهم السلام) عاطفة عابرة، ولا انفعالاً وجدانياً يُستهلك في لحظة، بل هو حقيقة وجودية، وجوهر تكويني يتغلغل في بنية الإيمان، حتى يغدو الدين ـ في أعمق تعريفاته ـ حبّاً خالصاً يتجلّى في الطاعة، ويُختبر في السلوك، ويُترجم في المواقف. ومن هنا جاءت الكلمة المضيئة عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «هل الدين إلا الحب؟!»، لتختصر مساراً عقدياً وتربوياً كاملاً، لا يُفهم الدين بدونه، ولا يُقام إلا به.

إن هذا الكتاب ينطلق من هذه القاعدة الجوهرية: أن الحب ليس فرعاً من فروع الدين، بل هو أصله الذي تتفرع عنه سائر القيم. فالحب هو الذي يُنشئ الإيمان، ويمنحه روحه، ويُخرجه من الجمود إلى الحركة، ومن الادعاء إلى الصدق. وما الطاعة إلا صورة الحب حين يتجسد، وما المعصية إلا دليل خلل فيه أو انحراف عن وجهته. ولهذا كان القرآن الكريم يجعل معيار الحب الإلهي هو الاتباع العملي، كما في قوله تعالى: «قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله»، فربط بين دعوى القلب وسلوك الجوارح، وجعل الطاعة برهان الحب، لا مجرد دعوى لسان.

وفي مدرسة أهل البيت (عليهم السلام)، لا يُفهم الحب بوصفه حالة وجدانية معزولة، بل هو وعيٌ ومعرفةٌ والتزام. هو معرفة بالله تُثمر خشية، ومحبةٌ لرسوله تُثمر اتباعاً، وولاءٌ لأوليائه يُثمر نصرةً وانتماءً. ومن هنا، فإن الحب عندهم ليس حالة سكون، بل حركة دائمة نحو الكمال، وارتقاء مستمر في مدارج القرب الإلهي.

وسيحاول هذا الكتاب أن يكشف عن أبعاد هذا المفهوم كما تجلّى في كلماتهم وسيرتهم، من خلال تتبع مسارات الحب في العقيدة والسلوك. فيبدأ ببيان أن الحب هو أصل الإيمان وميزانه، كما ورد عن الإمام الباقرعليه السلام: «الإيمان هو الحب في الله والبغض في الله»، ثم ينتقل إلى تجليات هذا الحب في العلاقة بالله ورسوله وأهل بيته، حيث يصبح الحب معياراً للإيمان وميزاناً للصدق.

ثم يتوسع في استجلاء أثر الحب في بناء المجتمع المؤمن، وكيف يتحول إلى رابطة أخوية تُسقط الفوارق، وتؤسس لمجتمع قائم على الإيثار والتراحم، كما تتجلى في وصايا الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، وسيرة أصحابه، وأصحاب الحسين (عليه السلام) الذين جسدوا الحب في أسمى صوره.

ولا يغفل الكتاب عن مواجهة التحدي المقابل، وهو الكراهية والضغينة، فيعرض نماذج من مواقف الأئمة (عليهم السلام) الذين واجهوا الإساءة بالمحبة، والعداء بالحلم، كما في سيرة الإمام الحسن بن علي عليها السلام، وسيرة الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليهما السلام، ليؤكد أن الحب الحقيقي لا يُهزم أمام الأذى، بل يزداد صفاءً ونقاءً.

ويمتد البحث ليشمل الحب في أفقه الإنساني العام، حيث لا يقتصر على دائرة المؤمنين، بل يتسع ليشمل الخلق كافة، اقتداءً بسيرة النبي صلى الله عليه وآله، الذي كان رحمةً للعالمين، وبنهج أهل بيته عليهم السلام الذين جعلوا من الإحسان قيمةً تتجاوز حدود الانتماء.

غير أن الطريق إلى هذا الحب ليس خالياً من العوائق؛ إذ ثمة حب زائف، يقوم على المصلحة أو الهوى، حذّر منه الأئمة (عليهم السلام)، لأنه يُفرغ الدين من مضمونه، ويحوّل العلاقة إلى تبعية عمياء لا وعي فيها ولا التزام. ومن هنا، كان لا بد من تربية القلب، وصقله، وتهذيبه، ليكون وعاءً صالحاً لهذا الحب الصادق، عبر الذكر والدعاء وخدمة الخلق، حتى يبلغ الإنسان مرتبة يحب فيها لله، ويعمل لله، ويعيش لله.

إن هذا الكتاب ليس تنظيراً لمفهوم مجرد، بل هو دعوة لإعادة بناء العلاقة مع الدين من الداخل، من القلب تحديداً؛ لأن كل إصلاح لا يبدأ من القلب، يبقى ناقصاً، وكل طاعة لا يسندها حب، سرعان ما تذبل أو تنحرف.

فالحب... هو البداية، وهو الطريق، وهو الغاية.

مدخل :

قال سيدنا الإمام الصادق عليه السلام:هل الدين إلا الحب؟! إن الله عز وجل يقول: " قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله.

هنا يختصر الإمام جعفر الصادق عليه السلام الدين كلّه في كلمة واحدة، فيقول: «هل الدين إلا الحب؟!»، فإنما يفتح لنا بابًا لفهمٍ مختلفٍ للدين، فهمٍ يتجاوز حدود التعريفات الشكلية، وينفذ إلى جوهر العلاقة التي أرادها الله لعباده. إن هذا الاستفهام ليس بحثًا عن جواب، بل هو هدمٌ لكل تصورٍ قاصرٍ يجعل الدين مجرد طقوسٍ تُؤدّى، أو أوامرَ تُنفّذ بلا روح، ليقيم بدل ذلك تصورًا حيًّا يجعل الحب أصل الدين ومادته وروحه.

ومن هنا يتكامل هذا المعنى مع البيان القرآني العميق في قوله تعالى: «قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله»، حيث لا يُترك الحب دعوى في القلب، بل يُربط بالاتباع، ويُختبر في الطاعة. فالحب الصادق لا يبقى حبيس الشعور، بل يتحول إلى التزام، ولا يقف عند حدود الوجدان، بل يمتد ليصوغ السلوك، ويهذب المواقف، ويعيد ترتيب أولويات الإنسان في حياته كلها.

وعلى هذا الأساس، يغدو الدين حركة حبٍّ صاعدة من العبد إلى ربه، تتجلى في الامتثال لأمره، وفي السير على نهج رسوله وأوليائه صلوات الله عليهم، ثم تعود هذه الحركة فيضًا إلهيًا من المحبة والرضا والقبول. إنها علاقة متبادلة، يبدأها العبد بالصدق، ويكملها الله باللطف، فيكون الحب فيها طريقًا وغايةً في آنٍ واحد.

ومن هذا المدخل، محاولة ليتشكل هذا الكتاب ليقرأ الدين قراءة قلبية واعية، تستنطق نصوصه وسير أعلامه من زاوية الحب بوصفه المعيار الأعلى لكل انتماء، والميزان الدقيق لكل طاعة. فليس كل من أطاع أحب، ولكن كل من أحب أطاع؛ لأن الطاعة حين تنبع من الحب، تتحول من عبءٍ ثقيل إلى شوق، ومن تكليفٍ مفروض إلى لذة قرب.

إننا في هذا الكتاب لا نبحث عن الحب بوصفه شعورًا عابرًا، بل بوصفه أصلًا يُبنى عليه الإيمان، وقيمةً تُقاس بها حقيقة الولاء، ومنهجًا يُعاد من خلاله تشكيل علاقة الإنسان بالله، وبالرسول، وبأهل بيته، وبالناس جميعًا.

ومن هنا، فإن هذه الرواية ليست مجرد مدخل نظري، بل هي مفتاح لفهم كل ما سيأتي بعدها، إذ بها يُفهم أن الدين في حقيقته ليس إلا قصة حب كبرى... تبدأ بالله، وتنتهي إليه.

مدخل البحث

- **معنى الحب في فكر أهل البيت عليهم السلام.**
- **لماذا كان الحب عندهم أساس الدين لا فرعه.**
- **روايات مثل:هل الدين إلا الحب عن الإمام الصادق عليه السلام.**

مدخل البحث

- **معنى الحب في فكر أهل البيت عليهم السلام.**